

المقابر

تاريخ الحضارة

مترجم عن الافرنسية

علم الكلام — بقي علم اللاهوت خلال القرون الوسطى العلم الرئيسي (والمدرسة اللاهوت في جميع الكليات التقدم علي سائر المدارس) وقد توفر علي الفلسفة خاصة ارباب العقول العاملة وكان لمشاهير علماء القرون الوسطى امثال ايلاروسان توما ودونس سكوت والبر الكبير القدح المعلى في الفلسفة وليس علم المدرسة او علم الكلام سوى فلسفة مطبقة علي اللاهوت فكان المتكلمون يتقبلون تعاليم الكنيسة كلها . قال كيتيموند اسقف افرسا لا يجب ان يفهم المرء اولا ليعتقد بعد بل يجب ان يعتقد اولا ليفهم بعد ذلك . وقال سان توما بعد حين من الدهر : ان حقيقة العقل ليست علي تناقض مع حقيقة الايمان المسيحي . ثم ان علماء الكلام درسوا فلسفة ارسطو (عرفوها من ترجمات رديئة باللغة اللاتينية نقلت من ترجمات عربية) وقد أعجبوا بمنطقه فكانوا يذهبون الي انهم باستعمالهم طرق البرهان يحلون المسائل التي لم تحلها الكنيسة . وهذه المسائل : قد تكون دقيقة مثل قول بطرس لومبارد : اذا كان الله يقدر ان يعرف من الاشياء أكثر مما يعلم . وقال دونس سكوت : اذا كانت الصعوبة في ان يكون مولودا هي خاصة في تركيب الشخص الاول في اللاهوت . وقال سان توما : اذا كان جسد المسيح عاد الي الحياة وعليه جروح وفيما اذا كانت الحمامة التي ظهر

فيها الروح القدس هي حيوان حقيقي
 وكان علماء الكلام من أكبر العاملين فقد مات دونس سكوت (الدكتور
 المحقق) في الحادية والثلاثين وقد ألف ١٢ مجلدا من قطع النصف ولخص سان توما
 (الدكتور العام) في كتابه السوم جميع افكار القرون الوسطى وعلى مختصر كتابه
 المعمول في اللاهوت بالمدارس الاكليريكية الكاثوليكية. واخترع ريموند لول في
 القرن الرابع عشر الصناعة العظمى وهي اداة للبرهان يتأني بها حل جميع المسائل بدون
 استخدام الذهن. واذا كان المتكلمون لا يستخدمون الا البرهان الاستقرائي دون
 ملاحظة الحوادث لم يزيديدا شيئا على العلم البشري وظلت فلسفتهم كما يقوون هم
 أنفسهم خادمة لعلم اللاهوت.

خزائن الكتب والادب العلمي — كان في الاديار العظمى أبدا بعض القسوس
 لاعمل لهم الاستنساخ الكتب وتزيينها فينقلون المخطوطات التي استعارتها اديارهم
 من غيرها. وعلى هذه الصورة أسست خزائن الكتب فلم تتجاوز بضع مئات من
 المجلدات (فكان في فيكان ١٤٨ وفي سان يفرول ١٣٨) لان الكتب كانت نادرة
 والرق عزيزا وجميع الكتب كانت باللاتينية ومعظمها كتب عبادة وتنسك مثل
 الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وكتب القسوس وحياة القديسين وكان القسوس على
 صلاتهم لا يسمحون لغير هذا النوع من الكتب ويقولون ان كتب شيشرون وكتب
 فرجيل لا تنفع في سلامة النفس بيدانه كان في بعض الاديار التي يغلب عليها حب الادب
 بالاكترشي من المؤلفات اللاتينية الاخرى مثل مصنفات شيشرون وفرجيل وهوراس
 وبلين لمون والتعزية لبو بس.

كتب رجال الاكبيروس كالاساقفة ورؤساء الاديار والقس في القرون الوسطى
 كثيرا من المؤلفات لانفسهم فكانوا يؤلفون في الادب والشعر ورسائل في اللاهوت
 وتواريخ يسرد فيها جميع أحداث العالم منذ البدء الى زمن المؤلف ووقائع مؤلفة من
 أخبار جافة جدا تكتب سنة فسنة تذكر فيها أخبار المجاعات والابوة والمذنبات
 والحروب ووقاة الملوك أورؤساء الاديار. كل ذلك باللغة اللاتينية وانشاء مطول مزهر
 مصنع تكثر فيه الاستشهادات أشبه بلغة تلميذ تعلم اللاتينية. وكان رجال القرون

الوسطى جنباً الفكر يعتقدون أنفسهم أحط جداً من سلفهم ولا يطعمون الا في أن يقلدوهم وانك لتجد في آدابهم بعض الافكار صرح بها بقوة وبعض صحف حية في توارى عنهم ولكن أدبياتهم أدبيات طلبة فهم قوم اجتهدوا وأعوزهم الابداع .

أدب العامي — اما عامة المدن والقصور ممن لا يعرفون اللاتينية فقد اقتضت لهم كتب باللغة العامية لغة الرومان { المشتقة من اللاتينية } وهكذا نشأ نحو أواخر القرن الحادى عشر الادب الجديد فابتدأ من الشعر كما جرت العادة في أنواع الآداب فسموا هؤلاء الشعراء المتحولين وهم الذين يتجولون في شمالي فرنسا ويؤلفون أشعارهم بالفرنسية ويسمون شعراء الجنوب الطوافين وهم يؤلفون بلغة أقاليم البروفانس { البروفانسال } وكان بعضهم فرساناً وصناعة الآخر الشعر ويسمونهم المشبعين كانوا يذهبون الى الاسواق الكبرى حيث يجتمع أغنياء التجار ويقصدون قصور أعظم السادة في أيام الاعياد ويقنون ومعهم ربابة صغيرة وهذه الاشعار ذات الثمانية أو العشرة مقاطع سميت بالاغاني لانه كان يتغنى بها وسميت { بلغة البروفانسال رومانسية } لانها كانت باللغة الرومانية . وكان شعراء الجنوب أكثر خفة ولغوا فينظمون قطعاً صغيرة من الهجاء أو اغاني العشق أو اغاني الليل واغاني السحر .

وشعراء الشمال أميل الى البديهة يرمون بالحروب والغارات وحملات شارلمان ورفاقه وارتور ملك الغال وبحروب الاسكندر فكانت أغانيهم أغاني العمل وقد نظموا من هذا القبيل مدة ثلاثة قرون في الولايات الفرنسية في الشمال ووجد في أيامنا منها زهاء ألف قطعة في مخطوطات منسية من القرن الرابع عشر ومن يعلم كم فقد من نظرائها . ومن المتفق عليه بينهم ان اجملها ما كان قديماً مثل اغاني رولاند وراول دى ككامبرى وكان لوتهرين وأشعار كريتن دى نزوا . وما يسقم قصائد القرون الوسطى سواء كانت بلغة الرومان أو اللغة اللاتينية الهوس في التقليد والشرح واذ لم يكن لشعراء القرن الثاني عشر أمثلة يحتذونها ذهبوا مع الطبع ونطقوا بما شعروا به ووصفوا ما رأوا . ولم يأت الشعراء في القرون التالية غير التوسع في القصائد القديمة واصلحوها ثم حدثت قصائد ذات العشرين والثلاثين ألف بيت التي لا يحكم على غير المتأدين بتلاوتها .

منشأ الهندسة الرومانية — لما أخذ المسيحيون في القرن الرابع يحتفلون على ملا

الناس بعبادتهم كانوا يجتمعون في كنائس كبرى وهي قاعات عظيمة مسطحة السقف تكون محكمة مدنية وسوقا للتجار في آن واحد فكان المؤمنون يقعدون في ساحات التجار أو الصحن وهو مقسوم الى روافق تقسمها صفوف من السوارى ومحل المحكمة على شكل نصف دائرة وأعلى الصحن كان بمثابة محراب يجلس فيه الاسقف والقس . وقد احتفظت الكنائس المسيحية زمنا باسم البازيليك (البيعة الكبرى) وصورتها ان تتألف من صحن كبير على جانبيه صحنان صغيران ومحراب يسمى عقدا بسبب العقد الذى يغطيه ثم تصوروا ان ينوا في مقدم الكنيسة برجاً أو برجين تجعل فيه الاجراس وان يستعوضوا عن السوارى الخفيفة بدعام مضمطة وان يجعلوا بدلا من الخشب والسقف المسطح المعرض للحريق بناء من حجر على شكل عقد وبذلك نشأت هندسة جديدة سميت الرومانية لانها نشأت في بلاد الرومان . فقد بدأت في ايطاليا الشمالية وجنوبي فرنسا في القرن الحادى عشر ولكنها انتشرت في جميع أوروبا الغربية والكنائس الكاتدرائية الكبرى في ورمس وسبير في المانيا هي كنائس رومانية ولا يزال في كثير من القرى في وادى الرون وفي اوفرنيا ونورمانديا كنائس قديمة على الشكل الرومانى اذ لم تتمكن حالتها المالية من ابدال ذلك القديم بطر من البناء الجديد الهندسة الرومانية — لما كانت الكنائس الرومانية قد بنيت في بلاد مختلفة وعصور متفاوتة على يد مهندسين لم يتبعوا اصولا واحدة في الهندسة فقد بعد الشبه بينها ولذلك ترى لاوفرنيا هندسة خاصة بها ومثل ذلك لنورمانديا ولا لمانيا . ولكنها كلها ترجع الى مبدأ عام وهو ان الجزء الأكثر زينة أى الواجهة متجهة نحو الغرب وقبة الجرس (وأحيانا تكون قبتان) تقوم فوق الواجهة وتنتهي بذروة محدودة وتشرف على الكنيسة بأسرها والرتاج أو الباب الأعظم يكون في أسفل الكنيسة ومنه يدخل المصلون وهو بمخنايا منقوشة وأحيانا لا يبلغ الداخل الارتفاع قبل أن يجتاز دهليزا وهو ذو سوارى في مقدم البناء والرتاج يؤدى الى صحن الكنيسة الأعظم في الوسط وعلى الجانبين عمد متينة تضمها أروقة تحمل الحوائط الداخلة التي تجتمع في أعلى البناء فيتألف منها عقد ومن كل جهة من الصحن الاكبريين صف الاعمدة والحائط الخارجى من الكنيسة صحنان صغيران ويسميان الجانبان الواطئان فالصحن الكبير والجانبان

الواطئان يفصل بينهما رواق عريض عال ينتهى في كل طرف من أطرافه برتاج متطرف يشبه رتاج الواجهة (وأحيانا تعلوه قبة جرس) ثم يكون الخورس على شكل مدور على خط مستقيم مع الصحن الاعظم ولكنه أعلى منه يوضع درجات والصحنان الواطئان يمتدان على جانبيه وكثيرا ما يحيطان به من وراء وكل هذا الشطر من البناء الذى يسمونه الرأس مغطى بقبة

وتحت الخورس غرفة معقودة وهى الناووس فيها ذخائر القديسين وقضاء الكنيسة بنوافذ تطل على الصحنين الواطئين أو الصحن الأعلى وقد أقيم في الخارج لكي تدعم الحوائط الخارجية لتحمل ثقل العقود الباهظ دعائم قبة جعلوها سندا من جانبي الكنيسة بين النوافذ وأرتجة الصحنين الواطئين وقباب الجرس كلها وأقيمتها ونوافذها على صورة العقود أى على شكل نصف دائرة مثل الابنية الرومانية القديمة وقد جعل شكل الكنيسة على صورة الصليب ورجله الذى هو عبارة عن ثلاثة أرباع مجموع رقعة المكان مؤلف من الصحن وماعلى جانبيه من الفنائين الواطئين وفيه يجتمع الناس والرواق العريض العالى يمثل ذراع الصليب والرأس المدور هو القلب وهو المحل المقدس من الكنيسة يجلس فيه رجال الدين وتقام فيه الحفلات الدينية.

هندسة رسم البيكارين — بدأ المهندسون الذين بنوا الكنائس نحو منتصف القرن الثاني عشر يستعوضون عن العقود المدورة بعقود على رسم البيكارين . وقد أحدث هذا الاختراع الذى تيسر به انشاء عقود أعلى وأخف انقلابا في هندسة الابنية . فظل الرسم العام في الكنيسة واحدا : صليبا رجله الصحن والرأس محرابه (خورس) ولكن بدلت جميع تفاصيل البناء اذ بنيت العقود كلها على رسم البيكارين لاعلى صورة قوس فارتفع الصحن الاوسط الى علو شاهق وارتفع الصحنان الواطئان أيضا وأصبحا فنائين حقيقيين . واستغني عن العمدة المصمتة التي كانت تمسك العقود بحملة من العمدة الصغيرة الخفيفة وجعل فوق الاسناد التي تمسك الحوائط الخارجية زواجر (نصف قناطر) عظمية مارة مثل جسر هوأني فوق الصحن تدعم حائط الصحن الاكبر الاوسط من جهة واذ كانت القناطر الضيقة موطدة البنيان على هذه الصورة ساغ أن تكون فروج البناء أكثر علوا وسعة فانفرج الحائط الذى كان في الكنيسة

الرومانية يشغل أكثر من نصف الجانبيين وجعلت مكانه نوافذ. فعدت النوافذ القسم الرئيسى من الكنيسة وهي على ضروب متنوعة منها نوافذ على شكل المربع تستعمل لقلب الاجراس خاصة وهي فروج عظيمة تقسمها عميدات طويلة رقيقة الى قسمين وتشبه فرجة تتخلل الكنيسة من أعلاها الى أسفلها والنافذة من الجوانب الخارجة مزينة منقوشة من داخلها وخارجها بتخاريم من الحجر زينت بالزجاج وفوق الارتفاع نافذة عظمى مدورة بسمونها الوردية وهي أيضا تتخللها تخاريم على شكل الورد وليس للسوارى تيجان بل تنتهي في ذروتها بياقة من الورق معمولة من حجر .

تغشى الكنيسة كلها من داخلها وخارجها نقوش من الحجر فمنها ما هو على الرناج والنوافذ فوق الاسناد وفي طرف الزواجر وفي جميع طبقات قبة الجرس ومقدم البناء . ولقد مبر النقاشون قعدوا ينوعون تزييناتهم فكانوا يرسمون أوراق الحجر على مثال نباتات البلاد مثل القراص والعوسج والمالك والورد وعليها مسحة من الظرف وتمثيل القديسين التي تزيد الارتفاع والكوى والمشاهد المصورة فوق الرناج مشهورة بما فيها من الحياة والحقيقة وتمثل الميازيب حيوانات خيالية وشياطين غريبة الصور أو بشعتها معلقة في الفضاء وكل ذلك اختراع غريب مستفيض . وصور القبور ولا سيما في القرن الخامس عشر كثيرا ما تكون من بدائع النفس وقد بدأت هذه الطريقة في البناء نحو منتصف القرن الثاني عشر في ارباض باريز من أملاك ملك فرنسا (وربما كان ذلك في كنيسة سان ديني ونويون) ومن هناك انتشرت في أنحاء فرنسا كافة ثم في سائر بلاد أوروبا وكانت هذه الطريقة هي المعول عليها منذ القرن الثالث عشر الى أواخر القرن الخامس عشر في كل من فرنسا وألمانيا وإنكلترا . وأخذ المهندسون الايطاليون في القرن السادس ينون على مثال القدماء فآزغوا بذلك هندسة أواخر القرون الوسطى نزاعا شديدا واذ كانوا اتخذوه بمثابة اختراع للبرابرة الذين داهموا ايطاليا وهم الغوث فقد سموه الغوتي وبقي هذا التعبير لتحقير هذا الطرز من البناء يطلق عليه . وليس من ينكر اليوم ان الهندسة الغوتية هندسة متانة وابداع فاجل كنائس القرون الوسطى مثل كنيسة نوتردام دى بارى وكاتدرائيات ريمس ولاون وأميين وبوفي وكولون وستراسبورغ وبال وفريورغ كلها كنائس غوتية .

الطرز الغوتي المدني — استعملت الهندسة الغوتية بادی بدی للسكنائس ثم استعملت في الابنية الاخرى . ففي القرن الرابع عشر والخامس عشر خصوصاً نهض بعض السادة وأغنياء المدن فبنوا لأنفسهم قصوراً وفنادق وبنيت المدن بمجالس بلدية ولا يزال كثير من هذه الابنية باقياً الى اليوم أثراً باعراً من آثار الهندسة في إقليم الفلاندر مجالس البلديات في بروج وایبر وودنارد وفي فرنسا قصر العدلية في روان ونزل جاك كور في بورج . وأهم ما في هذه الابنية المدنية مقدم البناء فهي في المجالس البلدية تشبه مقدم بناء الكنيسة والمرقب يقوم مقام قبة الجرس وواجهة الفنادق الخاصة تطل في العادة على فناء داخلي ويفصل بين التوافذ صليب من الحجر (ومنه اشتق اسم المشبك) وهي مزينة بأبراج صغيرة من الورق وقد فتحت في السقوف طيقتان بديعة والاجنحة والابرار على شكل حقة الفلفل وهي في جميع الزوايا بارزة عن الواجهة والزوايا كلها مزودة بتأويل صغيرة وداخل الحجر مزین بنقوش أو صور منقوشة بالوان جميلة . وربما لم تعمل ابنية كهذه في البهجة والالطف .

الطرز الغوتي المتألی — كلما تقدمنا نحو أواخر القرون الوسطى رأينا الكنائس مغطاة برسوم ونقوش متنوعة بديعة وأكثرها في الاستعمال ورق الملفوف المروج اعوجاجاً غريباً فالكنيسة كانت واحالة هذه تشبه وشيا من الحجر وهذا ما يسمونه الغوتي المشعشع شاع في القرن الخامس عشر خصوصاً وأهم ماصنع منه في ذلك العصر كنيسة وستمنستر في انكلترا وبرج سان جاك في فرنسا وسان أوآن في روان . واعتاد القوم أن يزهدوا في الطرز الغوتي المتألی وان يعدوه افساداً للطرز الغوتي الخالص . لاجرم ان أجمل الكنائس بناء هي من العهد الاول لاختراع الطرز الغوتي ولكن معظم الدور الجميلة هي من بناء القرن الخامس عشر .

صفة البناء الغوتي — لم يتفق الناظرون على التأثير الذي ينشأ من الكنائس الغوتية فان معظم الزوار تملك عليهم مشاعرهم بما يرون من جلال تلك العقود العالية والسوارى الصغيرة كالغاية بكثافتها وهي في الجو محقة وبمنظر هذه القباب للاجراس المحددة والاوراق الموجهة والغيلان المتخيلة والانوار التي ترسل من خلال الزجاج الملون وقص الحجر والزجاج الذي يظهر أنه لا يتوم الا بمعجزة كل ذلك مما يمدت أثر

صناعة قابلة العطب ومخالفة للطبيعة واجتهاد قوى بلوغ السموات العلى . ومن هنا نشأ هذا رأى الشائع وهو ان الهندسة القوتية هي نتيجة سامية لعصر متألم تعذبه الحاجة الى الانهابة . ويقول بعض أهل هذه الصناعة ان هذه الهندسة على العكس تمتاز بنظامها المعقول وترتيبها المدقق في اطرافه واعطافه والتأثير العام الذى يحدثه تأثير حياة قوية راثقة فيها البهجة والانس .

﴿ التوسع في الحريات السياسية وارتقاء الطبقات النازلة ﴾

تحرير المدن

• صكوك التحرير — معظم مدن فرنسا قري قديمة (١) يملكها احد السادة على ما استبان من اسمائها فان (فيل) (المدينة) او فيلا معناها المحلة حتى ان المدن التي يرتقي عهد تأسيسها الى الرومان قد سقطت في أيدي أساقفتها (مثل أمين ولان وبوفي) أو في يد الملك (مثل أورليان وباريز) أو في أيدي بعض الامراء (مثل انجر التي كانت للكونت دانجو وبوردو للدوق اكيين) فكان السيد أو وكيله يحكم كما يحكم سيد على سكانه فيكرههم على اداء المال ويقضي بينهم ويحكم عليهم وكثيرا ما يأخذ منهم بضائعهم أو يوقفهم بدون سبب لانه كان القاضي فيهم وحده . وكانت المدن في القرن العاشر حقيرة للغاية لا تمتاز عن القرى الا بأنها محاطة بسور .

غدا السكان في القرن الثانى عشر أكثر غنى فأخذوا يرغبون في النظام المرتب وأخذ بعضهم يشقه عصا الطاعة أو بادائه مبالغ باهظة يتوصلون الى ان ينالوا من سيدهم وعودا يسجلونها في صك فكان السيد يقول اتني أعلم الجميع اتني أمنح أهل مدينتي العادات الآتية وذلك بأن يدفعوا الى من الآن فصاعدا المبلغ الفلاني كل سنة في وقت كذا وأتعهد بأن لا أتقاضاهم شيأ غيره . وجرت العادة في هذا الصك أن يشفع بقائمة الغرامات مثل قولهم « من يضرب غيره بجمع كفه يؤدي الى ٣ سولات غرامة ومن يبلطه برجله يدفع خمسة واذا سال دمه سبعة ومن يستل مدية أو حساما بدون أن يضرب بها يؤدي ٦٠ سولا واذا ضرب عشر ليرات ومن ييضق على غيره يسمى

(١) من زها ٥٠٠ مدينة فرنسية تكاد تكون ثمانون منها من المدن الرومانية القديمة

أجزم ويدفع لي ٧ سولات الخ » ويشترط أحيانا أن لا يعد الدم الذي يجري من
الانف دما مسفوحا وان الاولاد في سن الثانية عشرة فانزلا اذا تضاربوا لا يغرمون
ومن شأن الصك أو العهد أن يحدد كل التحديد مبلغ الغرامة أى ما يحق للسيد أن يتقاضاه
عن كل خطأ يرتكب . واليك الصورة التي عرف بها أحد رؤساء الاديار في القرن
الثاني عشر واسمه كييردى نوجان هذا العهد الذي عقد بين المدينة وسيدها: « ان لفظة
مديرية من الالفاظ الجديدة المقبولة ومعناها ان العبيد يدفعون مرة واحدة في السنة
فقط الى سيدهم الدين المعتاد لقاء عبوديتهم له واذا ارتكبوا بعض الذنوب لا يؤدّون
سوى غرامة معينة من قبل أما سائر السخرات والتكاليف المختلفة التي تتقاضى في
العادة من العبيد فانهم يدفعون منها بتاتا . وهذه اللامحة في تعيين الواجبات نحو سيدهم
تسمى عادات وحرية أو تحريرا . فقد عيّنت جميع المدن أن تنال مثلها فبدأت الحركة
في أواخر القرن الحادى عشر في مدن الجنوب وفي الشق الآخر من فرنسا في اقليمى
فلاندر وبيكارديا حيث كان التجار الذين يقتنون من التجارة ومنها امتدت الى أوروبا
بأسرها بحيث أنه لم ينقض القرن الرابع عشر حتى لم يبق بلاد لم تحصل على حريتها
المديريات - كان في المدن عدة ضروب من السكان وأرباب الصناعات والعمالة
المرتبين بحسب حرفهم ومهنتهم وتجار وبيوت لها شيء من الغنى تعيش به بدون أن
تعمل ويدعى مجموعهم « البورجوا » أى سكان مدينة حصينة (بورج) وهم محافظون
على الاعتصام بطاعة سادتهم ولكن بحسب الشروط المذكورة في عهدهم وهذه الشروط
تختلف اختلافا كثيرا . فلم يكن لهؤلاء السكان في معظم المدن من الحقوق الا أن يعينوا
أناسا منهم يسمونهم أهل المشمة وهؤلاء هم نصحاء وكيل السيد ويعينونه على جباية
الضرائب . أما في المدن التي نالت حظا أوفر (مثل بوفي وويل وديجون وناربون وتولوز)
فقد رخص لساكنها أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهناك كانت المديريات الحقيقية . جاء في
صك العهد الذي نالته مدينة بوفي ان كل واحد بعاون الآخر ولا يسمح بأن يؤخذ منه
شيء . وكان يكفي اذا اعتدى غريب على أحد سكان ليل أن ينادى بالبورجوازية
أى بالسكان المدينة فيهرع الى نجدته من كان حاضرا منهم ومن يتخلف يغرم وللمديرية
مالقارس من الحقوق فلها أن تحارب أعداءها وتحرب بيوتهم . ولها طابع تحتم به عهودها

علامة على حقها كما ان لها خزانة توضع فيها مالها ومرقبها فيه جرس تدعوه سكان المدينة الى حمل السلاح (والمرقب هو كبرج الجرس عند سكان المدن) ومجلسا بلديا أى دار يجتمع فيها رجال المدينة يعنى مجلس الرجال الذين يحكمون المدينة .

رجال المدينة — يتألف رجال المدينة من اعضاء المديرية فيكونون تارة اربعة وأخرى اثني عشر وآونة مئة وأحيانا متساوين في العدد ويرأسهم رئيس في الاحايين فيدعون في الجنوب القناصل وفي الشمال شيوخ البساد او مشايخ الحرف او الحكام يختارون من اشراف المدينة وكثيرا ما ينتخب بعضهم بعضا او يتوارثون الحكم أباء عن جد ولم يفكر أحد قط في القرون الوسطى ان يطالب بالمساواة سواء كان ابن المدن أو من الاشراف . ولهذا الاشراف على السكان سلطة مطلقة فهم الذين يقضون في الدعاوى ويحكمون على المجرمين ويجبون الخراج ويحتفظون بمفاتيح الابواب فيمدون السلاسل في الشوارع وقت الخطر ويقرعون جرس المرقب وعلى صوته يهب السكان باجمعهم مدججين بأسلحتهم ويقفون طوع ارادة رؤسائهم وعابهم ان يحضروا أيضا الى المجلس الاعظم الى الساحة والى المقبرة أو الى الكنيسة للمفاوضة في المسائل العامة ولا سيما لاستماع قرارات رجال المدينة .

العدل المدني — ليس لادن المدينة ان يأخذ حتمه بسلاحه كما هو شأن الفارس بل عليه ان يعتمد الى رجال المدينة أو نائب السيد ليعيدوا اليه حتمه المهضوم وذلك في محكمة أبناء المدينة ويطبقوا في هذه المحكمة مفاصل العادة القديمة فلمبان أو قريب المصاب يقف موقف المدعي فيبين الجرم ويركع على الارض ويضع يده على ذخائر القديسين ويقسم بان ذلك الرجل ارتكب الجرم ويحلف المدعي عليه بالعكس كلمة كلمة وقد تقضي المحكمة أحيانا عليهما بان يتبارزا بالعصي ومن غلب منهما يحكم عليه . واذا أتى المدعي بشهود يجب على كل منهم ان يقسم اليمين مرددا الكلمات ذاتها من ان المدعى عليه مجرم واذا حلف شاهدان يحكم على المدعي عليه ومن الصعب إيجاد شاهدين كل حين اذ يطلب من الشاهد ان يكون قد رأى الجرم يرتكب بعيني رأسه .

يجرى كل ذلك علنا وأحيانا في العراء ولا يسجل شيء مما يقرر فبعد البراز أو الايمانات تصدر المحكمة حكمه تقرأه علنا وهو : « بحسب الحقيقة التي وعاهامشايع

لو كونه وأوفريا) لكن على قلة .

ولقد نال من لم يحرمهم ساداتهم حريتهم وقضت العادة بأن كل عبد يستطيع أن يغادر قريته على شرط أن يخلع طاعة سيده والسيد يحتفظ بالأرض ويجب عليه أن يطلق سراح خادمه .

معاهد انكلترا في القرون الوسطى

السكسونيون - كان ينزل جنوبي بريطانيا العظمى منذ القرن السادس أناس من المحاربين الجرمانيين سكسونيين وانكليزيين الذين كانوا يأتون من سهل المانيا الشمالية الواسع المصب (المملوء بالضباب) القاحل . بلغوا هذه الأرض مسلحين عصابات مع أسراتهم وقد أبادوا الشعوب القديمة أو طرحوها إلى أطراف البلاد إلى جبال كورنوال القاحلة وبلاد الغال وكانوا من الجرمانيين الخالص شجر الشعور زرق العيون ضخام الاجسام مقنلي العضلات يبيض الوجوه عظاما في ما كلهم عظاما في حروبهم يقضون النهار على المائدة (في قصور ملوكهم أربع وجبات من الطعام كل يوم) فيزدردون إبقارا برمتها وبشربون شراب العسل ملء أو انهم كما يتعاطون شراب العسل المحمر الذي يسكر أقوى الرجال ومتى طغفحوا يتغنون بملاحم محاربهم يحبون الحروب حتى أنهم لما تنصروا أيضا كانوا يحبون أن يموتوا والأسلحة بأيديهم . قال الدوق دى نورثومبرلاند وهو على فراش المرض : اى عار علي يلحقني اذا أنا لم امت في الحروب التي خضت غمراتها وان اموت كما يموت البقر ضعوا لى درعي وسيفي وخوذتي وترسي وفأسى المذبة حتى يموت المحارب العظيم وهو في حالة القتال

ولقد كانوا يقتلون سكسونيهم مع سكسونيهم والاقرباء بعضهم مع بعض . رأينا نوستي أخا آرولد في القرن الحادى عشر مغاضبا من نيل أخيه الخطوة من الملك ذاهبا إلى أحد القصور الملكية حيث كان أدب آرولد مأدبة ويقتل خدمة آرولد يقطع رؤوسهم ويترأعشهم ويجمعها في أواني الجمعة وشراب العسل ويبعث إلى الملك يقول له : اذا قصدت إلى قصر كنجيد فيه زادا طيبا من اللحم المملح . وبذلك بعد رجال تلك الاحقاب شجعانا مخلصين صادقين لا بائهم وساداتهم في لعب السيوف اشداء على الاعداء والاولياء . وقد ورد في القصيدة السكونية الوحيدة التى ابقتها الايام ان

يوسفوف البطل مات دفاعاً عن شعبه بإتقاده من تتين كان يحرس كنزا . . اليك منشأ
الامة الانكليزية : مقاتلة متوحشون سفاكون ولكنهم أهل مضاء واخلاص .
النورمانديون - كان السكاذينا فيون (الدانيمركيون والنوروجيون والسويديون)
في القرن التاسع كما كان الجرمايوني في القرن الرابع أهل غارة متوحشين وثنيين تقضي
عادتهم ان يرث ولد واحد من أبيه بيته وماله أما سائر الاولاد فينضمون عصابات
بعضهم الى بعض لينذهبوا في طلب الثروة . فالتقاتل البربري اذا لم يخلف له أهله
ما يعيش به يرى من دواعي شرفه أن ينال الغني بمجد الحسام ويعتبر العمل مخلاً بشرفه
فاذا لم يكن مالكا يسرق وينهب واذا جاور السكاذينا فيون البحر أصبحوا قرصانا
فتبحر العصابة منهم في قوارب خفيفة ذات قلوعين بقيادة زعيم يختاره من بين ملوك
البحار الذين طالما فاجروا بآبائهم لم يناموا تحت سقف ولم يفرغوا قرن الجمعة بالقرب
من الدور المأهولة . تذهب تلك العصابات ذات اليمين وذات الشمال فنهبها من ضربت
نحو الشمال فتفتح ايسلاندا وغيروا نلندا واعتصمت أخرى في القلاع تنهب السفن
وتستاق القلعان هكذا كان شأن رؤساء القرصان المشهورين في جومسبورغ الذين
أوغوا البحر البلطيسي وأزبدوه خلال قرنين وقد آثر أكثر تلك العصابات أن يقصد
الى البلاد التي حازت شطرا من المدينة مثل فرنسا والمانيا واطاليا واسبانيا فغزوا فجأة
على الشواطئ وساروا في الأنهار ينهبون الدور ويهاجمون المدن اذا كانت حصينة
ويشتدون في معاملة السكينة لكرهاة فهم بصفتهم وثنيين فكانوا يقولون اننا أقنأ لهم
قداسا من الزماح . وكانوا يدعون في انكلترا الدانيمركيين وفي غيرها رجال الشمال
(النورمانديين) وقد قبلت العصابة الرئيسة فيهم أن تستوطن فرنسا وكانت الولاية
التي أصبحت نورمانديا خاملة لم تشتهر قط وبعد قرن ونصف عرفت في جميع أوروبا
فاقتبس النورمانديون في الحال الدين المسيحي واللغة الفرنسية (ولم يتكلم باللغة
الدانيمركية الا في بايو) وتألفوا مجتمعا وكان هذا المجتمع المؤلف من القرصان على
نظام وترتيب أكثر من غيره . فكان الدوق مطاع الكلمة فيهم يعدل بين قومه
كاهم واقليم نورمانديا الوحيد في أقاليم فرنسا الذي حظرت فيه الحرب الخاصة وكان
العدل منظما عاما للجميع . ولقد رويت من هذا القيل قصة خاتم الذهب الذي ظل

معلقا على شجرة بدون أن يجرأ انسان أن يسرقه ومع هذا فقد احتفظ النورمانديون على كره الدهور بأجسامهم الضخمة الشقراء وبالمنشاء والاقدام على العمل الذي انتقل اليهم من أجدادهم المنتشرين .

الفتح النورماندى — زعم غيلوم دوق نورمانديا انه ورث من تاج انكلترا فاعطاه البابا الحق في ذلك وبعث اليه بعلم مقدس فجمع جيشا قويا نحو ستين ألف مقشرد ليسترد ملكته وكلهم من الفرنسيس ووعدهم بأن يمنحهم اراضي وبعد ان كتبت لهم الغلبة اهل امر جنده وتركهم يعولون أنفسهم ويسكنون بيوت السكونيين الذين حاربوه ويحلون في املاكهم ويأخذون بالقوة ايامهم او وارثاتهم وهكذا يصبحون ارباب املاك وشرف (وهذا مادعي بفتح انكلترا) واصبح بعد ذلك معظم الاشراف والاحبار فرنسيسا ولم يقتبسوا اخلاق السكونيين اذ كانوا يحترقونهم بل ظلوا يشكلمون بالافرنسية ويعيشون عيش فرسان الفرنسيس فيعيشون بأولادهم الى نورمانديا ليعلموهم اللغة وقضوا بأن لا يتكلم في المدارس الا باللغة الافرنسية او اللاتينية وبقيت اللغة الافرنسية مدة ثلاثة قرون لسان الملك والبلاط والاشراف والقضاة وظلت الحال على هذا المنوال الى اواخر القرن الرابع عشر والقوم يؤلفون قصائد افرنسية وقد اعتذر شاعر يقصد القصيد باللغة الفرنسية عما ارتكب من غلطات اللسان بقوله عفو عما بدر مني فاني انكليزى .

الملوكية — حكم الملوك الجدد مملكة انكلترا كما حكموا دوقية نورمانديا والنظام والترتيب رائدهم واخذوا يستبطون اسرار مملكتهم واختار الملك اناسا من الاشراف (البارونات) يطوفون البلاد طولا وعرضا يبحثون عن الاراضي ويسجلون جميع املاك انكلترا ميين لكل واحد كيف تسمى الدار ومن يملكها وكل كان تمت من الاراضي والعبيد والعامة والاحرار والمزارع والمروج والمراعي والمطاحن مع ايمانها كلها وهكذا الف كتاب Domesday-book وبفضل هذا الاحصاء العام استطاع ان يعرف مبلغ قوته ومن هو الشعب الذى يبذل له طاعته وذلك من الشروط الضرورية في الحكم على ما ترى ولم توفق غير نورمانديا وانكلترا ان يحققوا في القرون الوسطى ثم ذكر الملك ان كل انسان حر (لا كبار السادة من اتباعه بل جميع الفرسان) ويقسم ان يذود

عن حياض أرضه ويحمي شخصه من اعتداء العدو واستطاع الملك على هذه الحال أن يجمع في جيشه جميع فرسان انكلترا .

ولقد استخدم الملك في كل كوتيته التي قسمت المملكة بها أقساما عاملا وهو الفيكونت وأخذ من القرن الثاني عشر يبعث بقضاة جوالين وكان لدى الملك مجلس يبت في المسائل الكبرى وقضاة يقضون في المسائل التي لها علاقة بالملك (وتسمى هذه المحكمة مقعد الملك) وقضاة للنظر في حساباته ومداريدله (وكان هؤلاء هم قضاة الرقعة . سموا كذلك لأنهم كانوا يجتمعون حول منضدة مغطاة ببساط على صورة رقعة الشطرنج) وكان المستشارون والقضاة ونواب القواسة (فيكونت) ينصبون ويعزلون من قبل الملك ولهم الحق باسم مواليتهم أن يسيطروا على أعظم السادات وأن يطلبوهم إلى التقاضي وأن يحكموا عليهم . ويحظرون عليهم أن يتحاربوا بينهم كما كان شأن أشرف فرنسا وكل من كان يداهم عدوه في انكلترا بحجة أنه يريد أخذ حقه بيده يحاكم لأنه تقض سلام الملك ولم يكن في جميع أوروبا مملكة حازت مثل هذا النظام ولا ملك أطيع كل هذه الطاعة .

النبالة الانكليزية — قسمت انكلترا إلى محلات كبرى يقوم على زراعتها العامة والمزارعون وتسمى كل محلة بيتا أى منزلا وتتألف منها قرية وكان للسادات الذين يدعون بالافرنسية بارونات وبالانكليزية لوردات عدة بيوت مجموعة في سمط واحد وملك أعظم سادات انكلترا من خمسمائة إلى ستمائة محلة ودعوا بلقب (كومس كونت) (وبالانكليزية آرل) وكانت هذه البيوت منبثة في أنحاء انكلترا عامة ولم يكن للقموس كما في فرنسا ولاية هو الحاكم المتحكم فيها وحده بشهر حربها وإلى يرجع أمرها وكان قوامه انكلترا من الغنى على جنب عظيم يسد أنفهم لم يكونوا ملوكا كما كان أمثالهم في فرنسا .

ولقد كثر عدد الفرسان بآدى بدء فكانوا في القرن الحادى عشر ستين ألف رجل شاكي السلاح وصاحب ملك ومن العادة أن يملك كل واحد بيتا وإذا حضر عليهم الملك أن يتقاتلوا لم يلبثوا أن نسوا سريعا المران على الحروب والذوق فيها وبينما كان الفرسان في فرنسا يحاربون مدفوعين بعامل الهوى والتلذذ كان فرسان

انكلترا منذ القرن الثاني عشر برون خدمة الجندية وطاعة الملك فيها ضربا من ضروب السخرة الشاقة ولذلك دعت الحال الى أن يجعل الملك أرباب الاملاك أن يتجهزوا بجهاز الفرسان ولما عرض عليهم أن يشتروا منه أنفسهم بدفع بدل مالي عن الخدمة قبل أكثرهم مقترحه والجلد أخذ منهم . وجاء زمن (١٢٧٨) أصدر الملك فيه أمره الى نواب قوامسته أن يكرهوا جميع الرجال الذين يتجاوز دخلهم العشرين جنيتها انكليزيا على الدخول في غمار الفرسان . ولقب فارس على كثرة رغبة الناس فيه في فرنسا كان مزهودا فيه كل الزهد في انكلترا فيكتفى هنا أشرف الانكليز أن يفلوا من حملة السلاح (سلاحدار) يعيشون في الغلة متوفرين على حرث أراضيهم وما من فارق يميزهم عن صفار الاحرار في حين كان في فرنسا لمن يريد أن يكون شريفا أن يكون من نسل أب شريف أما في انكلترا فيرون شريفا كل من كان له دخل كاف ليعيش برفاهية فان المزارع الذي أغني يصبح شريفا . ولم يكن من فرق بين أشرف الحقول في القرن الخامس عشر وبين صفار أرباب الاملاك غير الثروة ولذا لم تصبح النبالة الانكليزية طبقة لا يدخلها غير أهلها مناقضة لسائر الطبقات كما في فرنسا

العهد العظيم — كان الملك في انكلترا قويا والاشراف ضعفاء وهو على يقين بأنه مامن رجل من رعاياه يستطيع أن يقاومه ولذلك يسي استعمال قوته فيضطر الاشراف ان يمدوه بالمال و يقتصب منهم اراضيهم و غلاتهم وماشيهم و يسجنهم من دون ماسبب و بعدمهم بلا حكم . ولقد شوهد رجل يقتل لانه ضرب أيدا كان في غابة الملك و بقيت طريقة الحكم قرنا ونصفا على هذا المنوال وانتهى الامر بالبارونات ان بلغوا من الضعف مبلغا لم يستطيعوا معه ان يقاوموا متفردين بل اشتركوا ليقاوموا تلك القوة يدا واحدة فاجتمعوا فرصة كان فيها جان سان تر في حرب مع ملك فرنسا وحاجته ماسة الى معاضدتهم فهددوه سنة ١٢١٥ بأن يتخلوا عنه حتى اكروهه ان يقسم لهم أيمانا علنا بأن يحترم في المستقبل جميع ضروب الحرية أى حقوق الرجال الاحرار في مملكته . وكتب وعوده في عهد دخل في ٦٣ مادة ختمه الملك بطابعه وكان هذا هو الصك العظيم المرشد واليك المادتين الرئيسيتين منه : لا يوضع مال جديد على جميع

المملكة قبل ان يراجع مجلسها العام. لا يوقف رجل حر ولا يجبس ولا ينفي ولا يؤذى بوجه من الوجوه ولا تقبض ولا تأمر بالقبض على أى شخص الا بحكم على الاصول بين اقرانه وبحسب عادة البلاد. وهكذا تعهد الملك (أولا) ان يكف عن اموال الرعاياه ويعف عن أخذ حاجاتهم الا برضاهم (ثانيا) ان يحترم اشخاصهم بحيث لا يجازيهم الا بعد صدور حكم على الاصول.

على ان هذا التعهد لم يخرج عن حد الوعد وما من قوة تخطر على الملك ان ينقضها وكثيرا ما نقضه الا ان الملك عند جلوسه يجدد هذه الوعود (وقد جدد الصك العظيم ٣٣ مرة) . وهذا القسم ينبه الملك الجديد على الاقل الى واجبه وهذه الوعود مسجلة في عهد علني يعرفها كل انكليزي يذكر للرعاياه فيه ان لهم الحق ان لا يؤخذ مالهم ولا يوقفوا بحسب رغائب الملك. ومن هذين الفكرين نشأت رتيبان ابقيا عليهم حريتهم وهما مجلس النواب ومجلس المحكمين. فالعهد العظيم يقضي بان للملك حقوقا كما ان للامة حقوقا فهو أساس حريات انكلترا

اصل مجلس المحكمين — للملك في انكلترا الحق فقط ان يقضي في الجنايات ويحكم بالاعدام فهو يعين القضاة ويبيع بهم يطوفون مملكته . ففي كل سنة وفي كل بلد في اوقات معينة يأتي قاض من قبل الملك يؤلف باسمه مجلسا عاما يحضره الاحرار والاشراف وسادات الكورة ويسمونه مجلس قضاء الجنايات (وقد حفظ هذا الاسم وانتقل الى اللغة الافرنسية) فينظر القاضي في الدعاوى والجنايات التي ارتكبت في المملكة ويستعين باثني عشر رجلا شريفا ويحلفهم ان يقولوا بعدل ما يعرفونه ويبدأ بالتحقيق لكشف الغطاء عن الحقيقة ويسألهم اى المدعين محق في دعواه اذا كان المدعى عليه مجرما أو بريئا يحكم في مسائل الجنايات بموجب أجوبتهم بين الخصمين وكان يسمى هذا الضرب من الحكم التحقيق البلدى (١) والاثنا عشر رجلا من الفرسان الذين أخذت آراؤهم يسمون المحلفين او المحكمين وهكذا نشأ مجلس المحلفين (ولم ينظر اولا الا في القضايا المتعلقة بالاملاك ومنذ القرن الثالث عشر أصبح ينظر في

(١) أشبه مجلس المحلفين بآدى . بدء مجلس التفتيش الديني واسمها واحد وهو التفتيش واذا كان عمل المجلس مختلفا أصبح الاول مجلس حرية والآخر مجلس اضطهاد

المسائل الجنائية) وقد اخترع القضاة هذا المجلس لتسهيل عملهم فكان أعظم ضامن من ظلم القضاة لأنه يطلق الحكم على المتهم للوطنيين. وما مجلس المحلفين الا من الاوضاع التي يعجب بها في انكلترا وعنها أخذ جميع أمم أوروبا تقريبا
مجلس نواب انكلترا — كانت الاموال التي تنجي للملك من أملاكه والغرامات التي تنقضي باسمه تكفي لنفقة داره والادارة على رجاله واذا نشبت الحرب لا تعود تكفيه بناتنا فيكتب الى جميع أرباب الشأن من أمته ويستدعي الاساقفة والبارونات برسائل خاصة فيجتمعون لديه ويقررون بينهم الضريبة التي يرخص للملك أن يجيها وكانت هذه المشورة مقصورة زمنا على كبار الرجال (وهم الذين أخذوا من (جان) العبد العظيم) وفي أواخر القرن الثالث عشر سمح لكل مدينة وقصبة أن تبعث برجلين من أبنائها. ولكل مجلس مديرية أن يرسل فارسين يختارهما ولم يجز هؤلاء النواب أولا الاستماع ما يقرره كبار السادات ليحملوا خبره الى بلادهم ثم قبلوا بالدخول في المناقشة. وقدمى هذا المجلس الكبير بالبرلمان (مجلس الشورى) ولا يستدعيه الملك الا ليسأله تقريراً في جباية مال الا ان العادة جرت بأن البرلمان قبل أن يمنح الملك ما يريد يضطره الى سماع شكاويه وكثيرا ما يسأله اصلاح ادارته أو عزل عماله. وهذه طريقة في الحكم بالواسطة وحاول البرلمان مرات أن يجعل على الملك رقبا. الا ان هذا تخلص منهم ولم تثبت العادة في ذلك الا ان القوم اعتادوا الاستئناس بفكر ان الواجب على الملك كل سنة أن يجمع المجلس.

مضى زمن طويل والسادات الاساقفة يدعون وحدهم فقط ولذا كانوا يجلسون على افراد ويتألف منهم مجلس اللوردات (النبلاء) وفرسان الكونتيات وسكان المدن الذين تبعث بهم البلاد يؤلفون مجلسا جديدا وهو مجلس العموم (النواب). والى هذا التنظيم ترجع شؤون انكلترا فبدلاً من أن يبعد صغار الاشراف مع كبارهم لمقاومة الطبقة الوسطى (كما حدث في فرنسا) قد اتحدوا على العكس معا وظل اللوردات قرنين يتقودون مجلس النواب وفي خلال حرب الوردتين أفتي بعضهم ببعض بحيث انه لم يبق سنة ١٤٨٦ غداة تولت أسرة تودور زمام ملك انكلترا سوى ٢٥ لورداً وأحدث الملك لوردات من جديد الا ان الجدد منهم لم يحوزوا ما كان للقدماء من

الاعتبار . وأخذ مجلس النواب في القرن السادس عشر يدبر شؤونه بنفسه ويستمتع بماله من السلطة . هكذا نشأ مجلس نواب انكلترا الذي تكفل وحده بجعل الانكليز بآمن من الدفاع عن حقوقهم من الاستبداد الملكي فالبارلمان هو من الاوضاع المبكرة خاص بانكلترا حاد جميع الامم الممدنة أن يروا من الشرف احتذاء مثاله الامة الانكليزية — امتزج السكسونيون والنورمانديون كل الامتزاج في القرن الخامس عشر فتألفت منهما الامة الانكليزية بعد ان كانا شعبين متباينين وأصبحت لغتهم لغة واحدة جديدة وهي اللغة الانكليزية التي أصلها اللغة السكونية القديمة وهي لغة الشعب وتشبه لغة الاقاليم التي لا يزال ألمان الشمال يتكلمون بها الى اليوم . اما اللغة الافرنسية لغة الشرفاء فانها لم تأت الا بألفاظ عليية ومصطلحات في الحقوق والسياسة والفلسفة (يد أنها تهزعت في النطق بحيث لا تكاد تعرف) فلمتزجت اللغتان حتى بات من المتعذر تركيب جملة انكليزية بدون الرجوع الى الكلمات السكونية وما كانت الامة الانكليزية في أواخر القرن الخامس عشر أمة رجال البحر والتجارة كما هي اليوم ومامن شيء كان يدل على ما يكون مصيرها فقد كانت المدن صغيرة حقيرة الأربع منها فقط يزيد سكانها على عشرة آلاف نسمة حتى ان صوف الغنم الانكليزي لم يكن ينسج في انكلترا بل يبيعه الانكليز من حاككة فلاندر على نحو ما تقدم أستراليا اليوم صوفا للمعامل الانكليزية وما كان لهم بعد اسطول ولا ملاحون وهم عبارة عن فلاحين ومربي حيوانات ومع هذا فقد كان يلاحظ الناظر فيهم صفات تكون أمة عظمى ألا وهي النشاط وفكر الاستقلال وبطل القصائد الانكليزية روين هود زعيم اللصوص عاش في الغابة يقتل حراسها ورجال الشحنة ومع هذا كان يجود على فقراء الاكارين وقد صادف ذات يوم على جسر « جان » الصغير الذي لم يرض أن يدل له فأخذا يقتلان بالهوي حتي رثت عظامهما فسقط روين في الماء وهكذا أصبحتا أحبا باؤخذ الانكليز يحبون هذه المقاتلات التي يخرج منها المتقاتلان وقد كسرت ثناياهما وانتقلت خاصرتاها واليك المديح الوحيد الذي مدح به أمته أحد أشراف الانكليز السير جون فورتسكو : كثيرا ما شوهد في انكلترا ثلاثة أو أربعة من اللصوص يتقصون على سبعة أو ثمانية من أبناء الحشمة ويقتلونهم باجمهم

أما في فرنسا فلم يشاهد سوى سبعة أوثمانية من اللصوص ليس لهم من الجراءة إلا ما يستطيعون معه أن يسرقوا ثلاثة أو أربعة من أهل العرض ولذا كان المصلوبون من الرجال في انكلترا خلال سنة بدعوى اللصوصية والقتل أكثر مما كان في فرنسا محكوم عليهم منهم بمثل هذه الجرائم مدة سبع سنين . ولذا احتاج هؤلاء الانكليز حاجة لاتغالب الى الاستقلال . قال هذا المؤلف بعينه : ان الملك لا يستطيع ان يحكم على هذه الشعوب بغير القوانين التي اقروا هم عليها ولذلك لا يستطيع ان يجبي منهم ضرائب بدون رضاهم . ثم قابل بين رفاهية الفلاح الانكليزي وشقاء الفلاح الفرنسي فقال ان كل ساكن في هذه المملكة يتمتع بالثمرات التي تأتيه بها أرضه وماشيته يستعملها كما يشاء ومامن أحد يحول دونه ودون الاستمتاع بها اغتصابا ولا يطلب قط الى التقاضي الا امام القضاة العاديين وبحسب قانون البلاد ولذا أغني أهل هذه الديار فملكوا الذهب والفضة وجميع الحاجيات فتراهم لا يشربون ماء بقاء لهم الا ان يكون ذلك على سبيل التوبة ويطعمون لحوما وأسماكاً بكثرة وأقشنتهم من جيد الصوف فهم أغنياء بأثاثات بيوتهم وبأدوات الزراعة وفي كل مامن شأنه ان يجعل الحياة ودعة

مدن القرون الوسطى

الفتح الألماني — نحلت الشعوب الجرمانية بهجرتها الى الغرب لتدخل الى الامبراطورية الرومانية عن بلاد الشرق لشعوب من عنصر آخر وهم السلافون (الصقالبة) حتى لقد غدت جميع البلاد الواقعة شرقي الالب ملكا لقبائل من السلافين وقد صادف القديس بونيفاس حتى على شواطئ الفولدا أناسا من السلافين هرؤا منه وسخروا وبقي ما وراء ذلك من مستنقعات شواطئ بحر البلطيق شعوبا قديمة (كالبروسيين والليثوانيين والفينلنديين) وهذه الشعوب وثنية محاربة ولكنها رديئة السلاح منقسمة الى قبائل لا قبل لها بالمقاومة فشرع الالمان في تنصيرهم واخضاعهم وأنشأ ملوك جرمانيا بلادا على التخوم وأطلقوا لقوا مستباحرة الحكم كما يشاؤون ومن هذه البلاد نشأت الثلاث الامارات الالمانية الرئيسة وهي امارة براندبورغ شمالي مملكة بروسيا وامارة ميسني وسط مملكة الساكس والامارة الشرقية في جنوبي مملكة النمسا وأنشأوا أيضا أسقفيات بعثت من قبلها بمرسلين

أخذ التنصير يجري ببطء (من القرن العاشر الى الرابع عشر) بطرق مختلفة فدان بالمسيحية أمراء الصقالبة في معظم البلاد على أيدي نسايتهم اللاتي تنصرن وحطموا الاصنام وأكرهوا رعاياهم على قبول الدين المسيحي وكان من يتناول اللحم في الصوم الكبير من أهل بولونيا تقلع أسنانه عقابا له . وبقي السكان في تلك البلاد صقالبة . وقال زعيمهم الوطني لقب دون أو ملك (١) ويعترف بأنه من عمال الامبراطور ولم تكن معظم هذه الامم على شيء من التعصب ولما جاء برنارد الاسباني الى بومرانيا لينال الشهادة أخذ في تحطيم الاصنام المقدسة فاكثف الوثنيون بضربه واذا قد ظل على الدعوة الدينية أركبوه على قارب في نهر الاودر قائلين اذا كنت كثير الرغبة فيما أنت أخذ نفسك بسبيله فاذهب لبث دعوتك بين الاسماك والطيور وعلى العكس نمر بعض الشعوب في الشمال فان الاوسترين ذبحوا ملكا كبير يدان ينصرهم (١٠٦٦) وبعد ذلك قام الليفونيون وكان آتاهم الفرسان الالمان وعمدوهم مكرهين يسرعون في آثر الجيش يلقون بأنفسهم في نهر الدونا ليعتزلوا من العباد وعلى أولئك القوم أعلن الالمان حربا بأبادوهم فيها وقد فتح قوامسة الحدود بلاد الواند (التي سميت براند بورغ) وفتح فرسان الرهبة التوتينية بلاد بروسيا وفرنسا حملة السيوف ليفونيا وليستونيا فكانوا يحرقون القرى ويذبحون الرجال ويعودون بالنساء والأولاد وقد كثر بيع الاسرى السلافين في بلاد ألمانيا كلها حتى أصبحت كلمة سلافي في الافرنسية والالمانية مرادفة لكلمة عبد وبقيت كذلك وقد باد الوانديون (ولم يبق منهم الا بقايا لجأوا الى مستنقعات سبري وعاد البروسيون والليفونيون رعايا وهكذا فتح العنصر الالمانى ثلاث ولايات جديدة براندبورغ وبروسيا وليفونيا .

الاستعمار الالمانى - كانت السهول العظمى من نهري الاودر والفستول منخفضة رطبة ومغطاة بغابات وسط البطائح فولاية براندبورغ (رملة ألمانيا) لم تكن غير صحراء كثيفة من الرمل ولا يزال الرمل الى اليوم عند ما يهب الريح يسد أبواب البيوت

(١) ملوك بوهيميا أو بولونيا قومس مورافيا ودوقات سيليزيا ومكلنبورغ وبومرانيا وليتوانيا و مثل ذلك وقع للمجر وهم شعب بربرى من أصل فنلندى فأنهم تنصروا وأصبح زعيمهم ملكا على هنغاريا

وعند شيخ البلد في أرض فلامن مفاتيح عين البلد يوزع كل صباح على السكان ما يحتاجون إليه من الماء فاستدعى أمراء الألمان والسلافيون من ألمانيا فلاحين وأرباب صنائع (١) يأتون أن أحبو الزرع هذه الرمال واستثمار الغابات وتأسيس مدن وأنشأ الألمان يهاجرون عن رضو خلال قرنين وأتت ألوف من الأسر الألمانية تتوطن في القفار الشاسعة من الشرق كما يذهب الناس في أمانا لاستيطان صحارى أميركا الشاسعة . فكان الأمير يبيع من أحد الملتزمين قطعة من غابة أو طريدة من الأرض تكفى لإنشاء قرية فيجلب الملتزم فلاحين ويوزع عليهم الأراضي حصصا حافظا لنفسه مالا وبجيبه في أوقات معينة فيكون حاكمهم الوارث إلا أن الفلاحين يبقون أحرارا لأنهم هم الذين أحبوا موات الأرض ويحفظون بعاداتهم الألمانية . وإذا أريد تأسيس مدينة يقيم لها الملتزم خنادق وحوايط في جهاتها الأربع ويؤسس فيها سوقا يحفظ لنفسه الحق أن يأخذ منها رسوما . جرت هذه الأعمال الكبرى علي مهل تحت طي الحفاء ولقد شغل مؤرخو تلك الأيام بذكر حروب الامبراطرة فلم يفكروا في أن يملوا بالصورة التي جرت في تأسيس ألوف من القرى ومئات من المدن في براندبورغ وبومرانيا وبروسيا وسيليزيا وبوهيميا . ونشأت في الجهة الأخرى من نهر الألب ألمانيا حديثة ألمانيا العاملين والجنود ألمانيا المساويين والبروسيين الذين آكل اليهم فيما بعد أمر جميع أمم ألمانيا القديمة

المدن الحرة — أسست المدن الرئيسة في ألمانيا حول قصر الملك (٢) أو حول بيت أسقف (٣) أو أمير فالملك أو الأسقف سيد المدينة والتجار مستأجروه لأن أرض المدينة ملكه وأرباب الصناعات عبيده يعملون له ولرجالهم وفرسانه وخدامه يحكمون على الصناع والسوقة . وكلما نما الشعب يتخلى السيد عن النظر في شؤون السكان حتي انتهت الحال أن لا يتناول سوى رسوم مقررة من الصناع أخلاف العبيد

{ ١ } وجاء أيضا هولنديون أنشأوا سدودا وجففوا البطائح على طول الألب والأودر

{ ٢ } مثل أكس لاشابل وفرنكفورت

{ ٣ } مثل كولون وستراسبورغ ومايانس وهيمبورغ وبريم وغيرها

فلم يعد في المدن سوى رجال أحرار فلمدن التي زاد نجاحها في القرن الثاني عشر هي من أملاك الاساقفة جاء في المثل الألماني « ما أحلى عيش المرء في ظل العكاز فيجمع الاسقف خدامه وأهم التجار في مجلس ليحكموا مدينته » ولم يكن هذا المجلس سوى مجلس للاسقف. ولما قوى نفوذ المدن في القرن الثالث عشر وطردت أساقفتها أصبح ذلك المجلس مجلس المدينة وغدت له سلطة أمير فكان يقضى ويشهر الحرب ويخاطب الامبراطور مباشرة وتسمى المدينة المدنية الحرة (١) لأنها لم تخضع لسيده.

الصنائع — قسم الصناع الى طوائف صغيرة منذ كانوا عبيد الاسقف يعملون له ولرجالهم وكل طائفة تؤلف من صناع يحترفون حرفة واحدة ويخضعون لاحد خدام الاسقف وتسمى مهنة (أى خدمة) وزعيمها وكيل المدير أو شيخ الحرفة وذلك مثل مهنة الحدادين ومهنة السروجيين ومهنة الخياطين وغيرها ومن هنا اشتق اسم صنعة (٢) بالمعنى الذى نطلقه عليها وأصبح أرباب الصناعات أحرارا بالتدريج فبدلا من أن يصنعوا لاسادتهم وهم يعولونهم يعملون لأنسابهم ويبيعون ما يعملون في السوق وظلوا منظمين طوائف بحسب الحرف ويتألف من كل حرفة جماعة ولهم صندوقهم العام وعلمهم الذين يحولونهم في الحفلات ويرفعونه اذا خرجت المدينة لقتال ولهم حاميتهم المقدس (فللتجارين القديس يوسف وللسكافيين القديس كرين) ورؤساؤهم من أهل الصناعة نفسها (ويسمون في فرنسا شيوخ الحرف) ولهم نظاماتهم وبحسب عادة القرون الوسطى كانت عادات لاحاجة لتدوينها. وفي فرنسا لم تدون عادة صناعات باريز الا في أواسط القرن الثالث عشر وهذا القانون يبين الشروط التي بها يقبل المرء في هذه الصناعة. فيبدأ الولد بأن يكون خريجا على معلم في الصنعة فيعلمه المعلم صناعته

(١) أصبحت مدن الاساقفة المدن الحرة وأهمها الست المدن على الرين كولون، ماينس، ستراسبورغ، سبيير، ورس، بال والمدن التي كانت ملك الامبراطور تسمى المدن الحرة الامبراطورية وكانت مستقلة أيضا مثل نورمبرغ وأولم وأوغسبورغ (٢) أشبه تنظيم الصناعات في شمالى فرنسا تنظيمها في المدن الألمانية ولكنه أقل وطأة.

و يطعمه ويؤويه فالخريج يعمل لحسابه ويخضع له وللمعلم الحق أن يضربه وبعد بضع سنين يصبح الخريج رفيقا ولا يزال يعمل باسم معلمه وله أن يغادر معلمه ويذهب الى غيره فالرقعة هم أناس متنقلون وكثير منهم ينتقلون من مدينة الى أخرى بعرضون على أرباب الصناعات أن يشتغلوا معهم وبقيت هذه العادة في فرنسا جارية في تنقل صاحب الصنعة في أطراف البلاد . ومن كانوا على شيء من الغنى يفتحون حوانيت ويصبحون معلمين ولهؤلاء فقط الحق في أن يعطوا آراءهم في مجلس أهل الصناعة وتبين القوانين كيف يجب العمل ويحظر على العامل أن يشتغل في غير مكانه وبذلك يتيسر للجمهور أن يراقبه . ويحظر عليه أن يعمل على نور المصباح لئلا يعمل عملا رديئا ويمنع من استعمال مواد أخرى أو عمل أشياء تخالف القدر الذي أمر به القانون فالصياغ مثلا لا يطلون الذهب بالفضة وصناع التماثيل لا يستعملون الا اجناسا مخصوصة من الخشب واذا كان ثوب الجوخ أكثر أو أقل عرضا من القياس المقرر يصادر ويغرم صانعه ويحتفظ أهل الصنعة بشرفهم وشرفهم ان لا يبيعوا الا بضائع حسنة السرد والتقدير ولذا كان يراقب بعضهم بعضا أشد المراقبة ثم انهم يعضدون بعضهم بعضا امام الغرباء وامام سائر ارباب الحرف وليس لاحد في المدينة الحق ان يصنع سلعة او يبيعها الا معلمو الصناعة فيغرم كل رجل يفتح دكان خياط قبل ان يقبل في صناعة الخياطين وتعلق دكانه حق عمل شيء من الصناعة ويبيعها ملك خاص لأهل تلك الصناعة فلخياطون يمنعون باعة الخلق (الاسال) من بيع ثياب جديدة لان لهم وحدهم الحق في ذلك وما عمل باعة الخلق الا ان يبيعوا البسة عتيقة وصانعو اللحم يتقاضون على السروجيين لمنعهم من عمل اللحم وذلك لان صناعات القرون الوسطى كانت تحاذر من المنافسة كثيرا .

وأهم ارباب الحرف هم الخبازون والقصابون والحاكة والصباغون والبناءون والدباغون وصانعو الاسلحة والتجارون وعدد الصناعات متوقف على مكانة المدينة وليس في كثير من المدن الالمانية سوى ١٨ او ٢٠ صناعة وكان في باريس زهاء مئة حرفة وذلك لان عدة صناعات مختلفة يمكن جمعها في صناعة واحدة أو انه يتيسر تجزئة الصناعة الواحدة الى عدة حرف (في باريس مثلا ثلاث حرف لصنع السبعات)